

رسالته بتحذير أن يكون لبقاً: أن هؤلاء الصامتين على فقرهم في حضرة الأغنياء يحصلون على أكثر مما يحصل عليه ذلك الملحاح في السؤال. تذكر أن تكون قنوعاً لا طامعاً، حتى لو كان هدف صداقتك الوصول إلى الغنى. وفي الرسالة الثانية التي تتسم بأنه ليس فيها أي لمسة من سخريّة، والمعنونة «إلى لوليوس»، أكثر الناس استقلالاً» يكتب أن غير المجرب جدير بأن يفكر بتشجيع صديق قوي، ولكن الرجل الذي يحاول ذلك يعرف أن هناك الكثير من المخاطر. وعلى لوليوس أن يكون حارساً على تلك الاستقلالية التي يتمتع بها. فإذا كان الرجل العظيم يريد الخروج إلى الصيد معك، فدع سريرك وتخل عن كتبك ونفد دائماً رغباته. فإذا كان مسروراً أو حزيناً فعليك أن تكون هكذا، فليس من أجل السماء أنه يحب أن يفعل شيئاً آخر فما عليك إلا أن تقرأ له الشعر. والتحذير الأخير أنه بينما الفتى يبدي الموافقة، فعليه ألا ينسى تثقيف قواه العليا بدراسة الفلسفة، كما أنه يتكلم بكل جدية من دون أي فكرة ساخرة.

إنهما رسالتان توضيحيان. يمكن للمرء أن يرى الشبان الذين تواجههم مسألة ماذا عليهم أن يفعلوا، يسألون النصيحة من صديق أكبر منهم سناً محنك وواعٍ ويتخذونه قدوة. لقد ولد والدهوراس عبداً، وهو نفسه كان مصنفاً مع عليّة القوم، والسبب أنه هيا نفسه لأن يكون رجلاً غنياً وقوياً. لا يشك أحد ممن يقرأه أنه لم يتأثر بما سيناس. وبالفعل يبدو أنه تأثر كثيراً في حياته، ولكن صداقته الملائمة للحس العام مع الغني مثل مسيرة حياة لاعلاقة لها بالعواطف. ولن يكون أثماً إذا حرص الفتيان عاطفياً أن يحبوا أولئك الذين صاروا مستقلين. لم يكن لديه أي نفاق أبداً. فالطرائق التي قدمها لهم كانت ولاشك الطرائق التي كان نفسه يمارسها تجاه ماسيناس، وما شعر به وهو يفعل بداله أنه مفيد في نصيحة الشاب. لقد كانت قضية عملية واضحة. ولم يدخل في ذهنه قط أن هناك أي شيء